﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات: 43 - 45]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذكر البقاعيُّ وجه التَّناسُبِ بين هذه الآيات وما قبلها، فقال: "لمّا تمَّ ما اقتضاه سياقُ السّورة مِن قصَّة أهل الرّيح الذّارية؛ أتبعها قصَّةَ مَن أُهلِكوا بما يحمله السَّحاب مِن الرّيح، وما تحمله الرّيح من صوت الصَّيْحةِ الرّاجفة الماحقة، فقال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ﴾"[1].

ثمودُ عاصرت عادًا، وخَلَفَتها في عَظَمَة الأمم؛ ولذا يَقترن ذِكْرُهما كثيرًا

وأُتبِعت قصَّةُ ثمودَ قصَّةَ عادٍ هنا؛ لاقترانهما غالبًا في القرآن الكريم؛ لأنَّهما قبيلتانِ عربيَّتان، ولأنَّ قريشًا يمُرّون على قُراهما في أسفارهم[2].

ثُمَّ إنَّ ثمودَ عاصرت عادًا، وخَلَفَتها في عَظَمَة الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]، ولاشتهارِهما بين العرب؛ جاء تَقارُنهما غالبًا في القرآن الكريم[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: أصلُ (متع) يدلُّ على مَنفعةٍ وامتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ[4]، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمتِعُ مَتعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارتِفاعه، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَودة[5]، وحقيقة المتاع: كلُّ شَيءٍ يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّد[6]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ والانتظار، ويأتي بمعنى: التَّعمير، ومنه

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 4/ 48.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 12.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعمارَهُم[1]، وأمّا الأمر بالتَّمتُّع في قَوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾؛ فمُستعمَلٌ في إباحةِ المَتاع والانتفاع به[2].

2) ﴿فَعَتَوْاْ﴾: أصلُ العُتوِّ: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقالُ: عَتا الشَّيخُ، يَعْتو، عُتيًّا؛ إذا كَبِرَ، ولَيلٌ عاتٍ، أي: شَديدُ الظُّلمةِ، وكُلُّ مَن جاوَزَ الحَدَّ في كِبَرٍ أو فَسادٍ أو كُفْرٍ، فهو عاتٍ، والجَمعُ: عُتاةٌ[3]، والعُتوُّ: التَّجبُّرُ والتَّكبُّرُ، يُقال: عَتا، يَعْتو؛ إذا تَجبَّرَ على غَيْرِه، والعاتي: الجَبّارُ[4]، ويأتي العُتوُّ بِمعنى العِصْيانِ، ويُطْلَق على التَّمَرُّدِ وشِدَّةِ الإفسادِ، وعلى عدم قبول الحَقِّ[5]، وعلى البغيِ، والطُّغيانِ، والعنادِ[6]، والمبالغة في ركوب المعاصي، فلا يقع منه الوعظ والتَّنبيه موقعًا[7]، فالعُتوُّ: النُّبوُّ عن الطّاعة[8]، وكلُّ هذه المعاني مُحْتَمَلَة ومرادَةٌ في الآية لمجاوزة ثمودَ الحدَّ في الإعراض والاستعلاءِ والطُّغيان.

3) ﴿أَمْرِ﴾: أصلُ (أمر) ضِدُّ النَّهي، ومنه قولُكَ: افعَلْ كذا، يُقالُ: لي عليكَ أمرَةٌ مُطاعةٌ، أي: لي عليكَ أن آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً، فَتُطيعَني[9]، ومعنى ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، أي: فتكبَّروا، واستهانوا بما طلب اللّه تعالى مِنهم امتثاله[10].

4) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: أصلُ (صعق) يدُلُّ على شِدَّة الصَّوتِ، ومنه: الصّاعقة، وهي الصَّيحةُ الَّتي يموتُ مَن يَسمعُها، أو يُغشَى عليه، وقيل: كُلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، وقيل: الصّاعِقةُ هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِنَ الرَّعدِ، يَسقُطُ معها قِطعةُ نارٍ[11]، والمراد بها هنا: كلُّ عذابٍ مُهلِك، مِن الصَّعق بمعنى: الإهلاك[12].

5) ﴿مُنتَصِرِينَ﴾: أصلُ (نصر) يدُلُّ على إتيانِ خَيْرٍ وإيتائه، يُقالُ: نَصَرَ اللّه المُسلمين،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (متع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عتو/ عتا).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (عتا).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عتا).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عتا).
(7) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عتا).
(8) الراغب، المفردات: (عتو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(10) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 15.
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 49، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صعق).
(12) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.

أي: آتاهُمُ الظَّفرَ على عدوِّهم، يَنصُرُهُم نَصْرًا، وانتصَر: انتقَم، وهو منه، والنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة، أي: لم ينصرهم ناصِر حَتّى يَكونوا مُنْتَصِرينَ؛ لأنَّ (انتَصَرَ) مُطاوِعُ (نَصَرَ)، أي: ما نَصَرَهُم أحد، فانتصروا[1]، والمعنى: "ما كانوا مُنتَصِرينَ بغيرهم، كما لم يتمَنَّعوا بأنفُسِهم"[2]، فيَمنَعوا نزولَ العذاب بهم، و"ما استطاعوا الهزيمةَ والهربَ"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُفرانُ أنعُم الله تعالى وعصيانُ أوامـره مَجْلَبَةٌ لِحلول الهلاك

كما تَرَكْنا في قصَّة عادٍ آيةً عظيمةً للَّذين يخافون العذاب الأليم، كذلك تركنا لهم في قصَّة ثمودَ آيةً عظيمةً أُخرى، وذلك حينَ حلَّ بهم الهلاكُ نتيجةً لتكذيبِ أهلِها نبيَّ الله تعالى صالحًا ﷺ، ولعُتوِّهم واستكبارِهم على قبول الحقِّ الَّذي جاءَهُم به من عندِ الله تعالى، وقد أمدَّهم الله تعالى بأسبابِ المُتَع الدُّنيويَّة، وأمكَنَهُم من التَّمتُّع بها إلى انتهاءِ آجالِهم، فقابلوها بالكفر والطُّغيان، ولم يَمتَثِلوا تعاليمَ الله تعالى، فأحلَّ عليهم غضبَه، وأرسل عليهم صاعقةً رهيبة، هي نارٌ مسلَّطة عليهم من السَّماء، مع صيحةٍ خطيرة، فأخذتهم بالهلاك، وهم يُعاينونها بأبصارهم، بعد أن انتظروا حلولَها ثلاثةَ أيّام، كان نبيُّهم صالح ﷺ قد حدَّدَها لهم ميعادًا لهلاكهم بإخبار اللّهً تعالى له، وتكليفه إيّاه بتحديدها لهم، فيكون في انتظارهم العذابَ عذابٌ أكبرُ، فدمَّرتهم تلك الصّاعقة، فصاروا عاجزين عن مجرَّد النُّهوض على أقدامهم، أو القيام والتَّصدّي لها، فضلًا عن العجز عن الجري والهروب منها، ولم يَنصُرهُم أحدٌ من خارجهم، فاجتمَعَ عليهم العَجْزُ مِن داخلهم والخذلانُ من خارجِهم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 18.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 186.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ عاطفة ما بعدها على جملة: ﴿وَفِي عَادٍ﴾، أي: وفي قصَّة ثمودَ أيضًا عبرٌ وعظاتٌ لمن يخافون العذاب الأليم من المؤمنين باللّه ورسوله، فهو "عطفُ حدَثٍ على حدث، وقصَّةٍ على قصَّة"[1]، أو هي عاطفةٌ ما بعدها على جملةِ: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ والمعنى: "وتركنا آيةً للمؤمنين في ثمود في حالٍ قد أخذَتهُم الصّاعقة"[2].

فـي الأُمَـم المُهلَكة كلِّها، عِـبَرٌ وعِـظـاتٌ لِلمـوفَّقين من المؤمنين

معنى (في) في جملة: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ﴾:

الحرف (في) يفيد الظَّرفيَّة المجازيَّة، والمعنى: "في أمرِ ثمودَ وإهلاكِهم أيضًا آيةٌ وحجَّة للمؤمنين"[3]، و"تركنا في قصَّة ثمود آية وقتَ قلنا لهم: عيشوا بالدُّنيا إلى حين وقت الهلاك"[4].

قِـصَّـةُ ثـمود تـنـطـوي عـلى كـثيرٍ مـن العِـبَر والعِظات

والتَّعبير بحرف الظَّرفيَّة يُحَرِّك الهمَّة إلى البحث في قصَّة ثمود، والتقاط دقائق العِبر منها، ويُلمح إلى أنَّها منطَويَة على كثير من العظات النّافعة والدُّروس النّاجعة؛ لذا كانت من أكثر القِصَص ورودًا في القرآن الكريم.

دلالة التَّصريح بالاسم العَلَم ﴿ثَمُودَ﴾:

﴿ثَمُودَ﴾ هم قوم صالحٍ عليه السلام[5]، وفي التَّصريح باسم تلك القبيلة مزيدُ تهديدٍ لقريش؛ لأنَّ ثمود من قبائل العرب المهلَكين؛ فذِكْرُهم بعد عاد يلامِس نفوسَهم، ويُقارب واقِعَهُم.

مـن أسـالـيـب الزَّجر عن العتوّ تـذكـيرُ الـعُـتـاة بمصير أمثالِهم المُهلَكين

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 527.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 12.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 389.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 108.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

نكتةُ تقديم القيد ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾:

تقديمُ القيدِ يجعلُه مصبَّ العناية ومحطَّ الاهتمامِ

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ وبناء العبارة عليه؛ دَعمٌ للزَّجر عن العتوِّ الَّذي كانوا يستقبلون به نِعم الله تعالى ومُتَعَه الَّتي أولاهم إيّاها، وذلك بخلاف ما لو قيل في غير القرآن الكريم: وتركنا آيةً مُخيفة في قصَّة إهلاك ثمود؛ لأنَّ تأخير ذِكْرِهم يُبَطِّئ من أثر الوعيد، فتقديمُ اسم القبيلة، وبناءُ العبارة عليه؛ جعلها مُسْتَوْدعًا للعِبَر والعِظات، ويجعل التَّحذيرَ من الهلاك والمصير إلى مثلِ مصيرهم حاضرًا بِقوَّة في نفس المتلقّي.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِذْ﴾:

الموفَّقون لا يَغْفُلون مطلقًا عن شكر مولي النِّعَم؛ لئلّا تنقَلِبَ عليهم هلاكًا

﴿إِذْ﴾ ظرفُ زمان يُعبَّر به عن "الوَقْت الماضي، وللمستقبل في الأصَحِّ، وتلزم الظَّرفيَّة ما لم يُضَف لَها زمانٌ"[1]، وهي هنا بمعنى: حين، ويَحْتَمِلُ أن يكون قوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾، أنَّه قيل لهم "في أوَّل بعْثِ صالحٍ: آمِنوا، وأطيعوا؛ فتُمَتَّعوا متاعًا حسنًا إلى آجالكم، وهو الحين على هذا التَّأويل، فيجيء قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْاْ﴾ مرتَّبًا لفظًا في الآية، ومعنًى في الوجودِ، متأخِّرًا عن القول لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، ويحتمل أن يكون المرادُ هو ما قيل لهم بعد عَقْر النّاقة: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ﴾ [هود: 65]، وهي الحين على هذا التَّأويل، ويجيء قوله: ﴿فَعَتَوْاْ﴾ غيرَ مرتَّبٍ المعنى في وجوده؛ لأنَّ عُتوَّهم كان قبل أن يُقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، وكأنَّ المعنى: فكان مِن أمرهم قبلَ هذه المقالة أن عَتَوا، وهو السَّبب في أن قيل لهم ذلك، وعُذِّبوا[2].

دلالةُ التَّعبير بالقول ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

التَّعبيرُ بالقول الماضي في قول الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ﴾ يَحتمل أن يُراد به قولُ نبيِّهم ﷺ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:

(1) السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: 2/ 171.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 180.

65]، كما يَحْتَمِل ما قيل لهم في بداية أعمارهم حين منحَهُم الله تعالى النِّعم وأسباب المُتَع بها، فيراد بالقول على ذلك "لسان الحال؛ إذ ما سيقت إليهم هذه النِّعم إلّا ليعيشوا فيها، وليتَمَتَّعوا بها إلى أن تَحين آجالهم"[1].

من دواعي حذف الفاعلِ تَعلُّق الغرض بالمفعولِ لا الفاعل

وفي حذف فاعل القول وبنائه لغير فاعله تنبيهٌ إلى أنَّ غرض الخبر يتعلَّق هنا بالمفعول لا الفاعل؛ اكتفاءً بالعِلم بالفاعل مَن يكون من آياتٍ أخرى، وتوفيرًا لعناية المتلقّي على تدبُّر ما حصل من ثَمود إزاءَ هذا القول، وما حلَّ بهم جرّاء ردِّ فعلهم؛ لأنَّ غرض ذِكْرِ قصَّتهم يتعلَّق بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

التَّحذيرُ مِن الغفلةِ عن شُكْرِ الله تعالى على صُنوف المتَّع

معنى فعل التَّمتيع في جملة: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ الانتفاعُ بالحياةِ الدُّنيا[2]، وفيه مَعْنى السَّلامَةِ، فكأنَّه قيل لهم: اسلَموا حتّى ذلك الحين[3]، ففيه معنى التَّأخير إلى حلول ذلك الأجل المضروب، والمعنى: أنَّه "يبقيكم بَقاءً في عافيَة إلَى وقت وفاتكم، ولا يستأصلكم بالعَذابِ، كَما استأصل أهل القُرى الَّذين كفروا، فمَتَّع الله تعالى فلانًا، وأمتعه؛ إذا أبقاه، وأنسأه إلى أن يَنْتَهي شَبابُه"[4].

غرض الأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

تَنْقَلِبُ النِّعَمُ نِقَمًا؛ إن قوبِلَت بالكفر والجحود

الأمر في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ دالٌّ على الإباحَةِ، أي: "إباحة المتاع، وقد جُعِل المتاع بمعنى النِّعمة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: 26]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء: 111]"[5]، وهذه الدَّلالةُ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 528.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 14/ 28.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.

للأمر بالتَّمتُّع تجري على أنَّ هذا الأمر حاصلٌ قبل عصيانِهم وتمرُّدهم، وليس هو أمرَ التَّمتيعِ المؤقَّتِ بثلاثٍ، واستظهَرُه ابن عاشورٍ.

أمّا إذا حُمِلَ الأمر بالتَّمتُّعِ في الآيةِ على أنَّه الواردُ في قول الله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65]، فيكون الأمر للتَّهديد والوعيد، وقد نَفَذَ هذا الوعيدُ فيهم فعلًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

كذلك في الأمر ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ معنى "الإنذار والتَّحذير من المداومة على الكفر"[1].

بلاغةُ حذف متعلِّق التَّمتُّع:

طَوَى النَّظم الكريم متعلِّق التَّمتيع في قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، فلم يقل مثلًا: تمتَّعوا بكذا وكذا، والواقع أنَّه على معنى: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ "بِلَبَنِ النّاقة، وغيرِه ممّا مكَّناكم فيه من الزَّرع، والنَّخيل، والأبنية في الجبال والسُّهول، وغير ذلك من جلائل الأمور الَّذي أمرناكم به"[2].

نِعَمُ الله تعالى على الإنسان في نفسهِ وخارجِها لا تُحصى

ولطيفة ذلك الحذفِ الإيحاءُ بِكثرة أنواع المُتَع الَّتي آتاهم الله تعالى إيّاها، وأنَّها تعمُّ كلَّ مناحي الحياة، وكأنَّها خارجة عن حدود العدِّ والإحصاء، لكنَّ الإنسان في غالب عُمره، يتقلَّب في النِّعَم وصنوف المتاع، ويغفل عن شُكر واهِبها سبحانه، فضلًا عن كونِه يُنْكِر وحدانيَّته، ويجحد لقاءه، وهكذا يصرِّح الله تعالى في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: 34].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ غائيَّةٌ، أي: تمتَّعوا إلى وقتٍ قادمٍ محدَّدٍ في علم الله تعالى، سواءٌ أُقصد به انتهاءُ آجالهم، أو

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

قُصِد به انتهاء الأيّام الثَّلاثة المضروبة لهم موعدًا للهلاك، وفي ﴿حَتَّىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تلك المُتَع "لا تنقطع عنهم حتّى يحين أجلُهُم المقدور لهم عند الله"[1]، وفي ذلك استدراج بالنِّعم يَنْبَغي التَّيقُّظُ له.

قد يكون دوام النِّعم على العبدِ استدراجًا له، فينبغي التَّيقُّظُ لذلك

وكان ذلك التَّهديد كفيلًا باستثارةِ الرُّعب في نفوسهم، وحَملِهم على تدارك التَّوبة، والإلحاح في طلب المغفرة، لكنَّ بصائرهم قد طُمِست، فتمادَوا في غيِّهم حتّى نزل بهم العذابُ المُسْتَأْصِل، وهُم عالمون به مُتَرَقِّبون له.

وطَمسُ بصائرهم آيةٌ أخرى من آيات الله تعالى في قصَّة ثمود، ولم يَنْتَفِع بها بعضُ كفّار قريش؛ وذلك كما وقع لأبي لهَبٍ وأمِّ جميل، فإنَّهم لم ينتبهوا إلى محاولة تكذيب الوعيدِ في قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ [المسد: 3 - 4]، فيُهْرَعوا إلى الإيمان، ولو في الظّاهر، فثبَت فيهم صِدْقُ الرَّسول ﷺ، وتحقَّق فيهم أليمُ الوعيدِ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حِينٍ﴾، ولطيفةُ تَنْكيرِه:

نِعَمُ الدُّنيا - مهما طال عمرُ الإنسانِ فيها - سريعةُ الزَّوالِ

في التَّعبير بـ ﴿حِينٍ﴾ دلالةٌ على أنَّه حينٌ محدَّد عند الله تعالى، مضروبٌ موعدًا لإهلاكهم، وقد يكون "المراد بـ ﴿حِينٍ﴾ زمنًا مبهَمًا، جُعِل نهايةً لِما مُتِّعوا به من النِّعَم، فإنَّ نِعم الدُّنيا زائلة، وذلك الأجَلُ: إمّا أن يُراد به أجلُ كلِّ واحد منهم، الَّذي تنتهي إليه حياته، وإمّا أن يُراد به أجل الأمَّة الَّذي يَنْتَهي إليه بقاؤُها، وهذا نَحْوُ قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3]، فكما قالهُ الله تعالى للنّاس على لسانِ محمَّد ﷺ، قاله لِثَمود على لسان صالحٍ عليه السلام"[2].

وفي تنكير ﴿حِينٍ﴾ إشارةٌ إلى قِصَرِه وقُرْبه، ودُنوِّه مهما طال، وذلك التَّنبيه ممّا كان جديرًا بزجر ثمودَ عَن التَّمادي في العتوِّ، لكنَّهم عتوا، وتمادوا، وبالغوا في ذلك؛ فاستَوجَبوا الهلاك.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 528.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَعَتَوْاْ﴾:

أسوأ الذَّنب ما جاء بعدَ الوعيدِ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ على التَّعقيب، أي: إنَّهم واصلوا العتوَّ بعد تهديدهم بالأمر ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، وذلك مِنَ المبالغةِ في الفُجور؛ لأنَّ أسوأ الذَّنب ما جاء بعد الوعيد؛ إذ فيه جُرأة وسوءُ أدبٍ.

وفي ترتيب قوله: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بالفاء "دليل على أنَّ العتوَّ كان بعد الأمر: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، فيكونُ الظّاهر مِن (الحين) هو ما قدَّر الله تعالى للنّاس من الآجال، فما من أحد إلّا وهو مُمهَلٌ مدَّة الأجل، يقال له: تمتَّع إلى آخر أجلك، فإن أحسَنْتَ؛ فقد حصل لك التَّمتُّع في الدّارين، وإلّا فما لك في الآخرة من نصيب"[1].

وجوَّز بعضُ أهل العلم أن تكونَ الفاءُ للتَّفصيل، لا للتَّرتيب والتَّعقيب، قال الآلوسي: "كأنَّه قيل: وجعلنا في زمانِ قولنا ذلك لثمودَ آيةً، أو: وفي زمان قولنا ذلك لثمودَ آيَة، ثُمَّ أخَذَ في بيان كونه آيةً، فقيل: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، أي: فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر، فالفاءُ للتَّفصيل"[2].

ويجوزُ أن يكونَ في الفاءِ معنى التَّرتيب، ولكنَّهُ "ترتيب إخباريٌّ، وإلّا ففي الحقيقة عتوُّهم إنَّما كان قبل وعيدهم بالهلاك، الَّذي هو المراد من قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ على تفسيره؛ إذ المراد به ما بقيَ من آجالِهم"[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل العتوِّ ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعةِ:

إذا أجمع القومُ على الظُّلم، وبلغوا فيه غايتهُ؛ استوجبوا العقوبةَ

العتوُّ في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ هو التَّمرُّد والاستعلاء[4]، والمعنى: أنَّهم "تكبَّروا عن أمر ربِّهم، وعلوا

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 30، بتصرف.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 207.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 528.

استكبارًا عن طاعة الله"[1]، فعقروا النّاقة[2]، وبلغوا في البأس والقساوة غايتَهما[3].

وفي التَّعبير بالعتوِّ في قوله: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ دلالةٌ على فجورهم، ومجاوزتهم الحدَّ في ظلم أنفسِهم وغيرِهم، وصوغُه ماضيًا يدلُّ على تحقُّقه منهم، والقَطْعِ بحُصوله فعلًا.

وإسنادُ فعل العتوِّ إلى ضمير جماعتهم في جملة ﴿فَعَتَوْاْ﴾ صريح في توافُقِهم جميعًا على ذلك العتوِّ، واشتراكهم جميعًا فيه دون اعتراض من أحد منهم، وإذا بلغ القوم في الظُّلم ذلك المبلغَ؛ حان وقتُ استئصالِهم؛ إذ لم يبقَ فيهم خيرٌ يُرجى.

بلاغةُ التَّضمين في الفعل ﴿فَعَتَوْاْ﴾:

الفعل "(عتا) يُستَعمل بـ (على)، قال تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ [مريم: 69]، وهاهنا استُعمِل مع كلمة ﴿عَنْ﴾، ففيه معنى (الاستغناء)، فحيث قال تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾؛ كان كقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]، وحيث قال (على)؛ كان كقول القائل: فلان يتكبَّر علينا"[4].

العُتاةُ مستكبرون، مُتجاوِزون حدودَهُم مع الله تعالى

وتعديَةُ فعلِ العتوِّ بحرف المجاوزة ﴿عَنْ﴾ يُضَمِّنُه معنى الفعل: أعرضوا، واستَغْنَوا، أي: فأعرضوا عمّا أمَرَهم الله تعالى به على لسان رسولِه صالحٍ عليه السلام[5]، ويُضَمِّنه كذلك معنى الفعل تجاوزوا، أي: فتخطّوا حدودَ ما شرع الله تعالى، وتَجاوزوها، فجمع التَّضمينُ معانيَ العتوِّ والإعراض والاستغناءِ والتَّجاوز، أي: فتَجاوزوا أمر ربِّهم عاتين معرضين مُستغنين، وهذا أقوى من إعطاءِ معنًى واحدٍ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 179.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 390.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 185.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الأمر في قوله: ﴿أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾:

مُخالفَةُ ثمودَ لأمرِ الله تعالى

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ يحتَمِلُ الطَّلبَ، فيكون الأمرُ الَّذي هو ضدُّ النَّهي، أي: تجاوَزوا ما أُمِروا به من طاعة ربِّهم[1]، و"هو المذكور في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]"[2]، ويحتَمِلُ أن يكونَ الأمرُ بمعنى الشَّأن أو الدِّين عمومًا.

لطيفةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة، ودلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

ما أحطَّ أخلاقَ مَن يُسيءُ إلى مَن يُحسن إليه!

في إيثار التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ تنبيهٌ على ما تَنْطَوي عليه أوامرُه ﷻ من الرَّحمة بالعباد، وما يحقِّقه التزام دينِ الله تعالى لأهله من الرَّحمات، فإنَّه سبحانه ربُّهم، و"مولاهم الَّذي أعظَمَ إحسانَهُ إليهم"[3]، وهوَ المربّي لهم، القائمُ على كلِّ نفسٍ ﷻ.

وفي إضافة لفظِ (ربّ) إلى ضميرهم إخزاءٌ لهم، وفَضْحُ سوءِ أدبِهم وما هم فيه من التَّناقض؛ إذ إنَّهم عصَوا، وعتوا في حين أنَّهم ينعَمون بخيرات ربِّهم، الَّذي يُغدق عليهم، ويتعهَّدهم، ويعطيهم، فما أحطَّ أخلاقَ مَن يُسيء إلى مَن يُحسِنُ إليه!

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

كل آتٍ قريبٌ؛ فكلُّ متعة أُعقِبت بعذابٍ لا قيمةَ لها، فكأنَّها لم تكُن

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على جملة: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾؛ إذ تُرَتِّبُ أخْذ الصّاعقة إيّاهم على عُتوِّهم عن أمر ربِّهم، وتُفيدُ فوريَّة الأخذ مهما تطاوَل - على تفسير الحينِ بالآجال - وقتُ إمهالهم؛ لأنَّ كلَّ آتٍ قريب، وكلَّ متعة أُعقِبت بعذابٍ؛ لا قيمةَ لها، وكأنَّها ما كانت.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 390.
(2) القِنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 207.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الأخذ ماضيًا:

حـقـارةُ العُـتاة الـظّـالمين أمـامَ الهلاكِ الإلهيّ

الأخذُ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يعني الهلاكَ، أي: أهلكتهم[1]، و"أصابتهم إصابةً تُشبه أخْذَ العدوِّ عدوَّه"[2]، وأخذة الصّاعقة إيّاهم من أخْذِ الله تعالى، وفي الذِّكر الحكيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102]، وفي التَّعبير بالأخذ دلالةٌ على هَوانهم وضَعْفِهم وقلَّة حيلَتِهم؛ إذ إنَّهم أُخِذوا، وكأنَّهم شيء ضئيل يُتَناول باليد، ولا يستعصي على الآخذ تناوله.

وصوغُ فعلِ الأخْذِ ماضيًا في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يوحي بأنَّ أخْذَها إيّاهم كان بسرعة خاطفةٍ، وأنَّها أخذتهم فجأةً[3]، فوقعت، وتحقَّقت فيهم في لمح البَصَر، وطوي عتوُّهم في لحظةٍ مِنَ الزَّمن، وكأنَّه لم يكن.

بيانُ مرجعِ ضمير المفعول في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

إذا جـاء عـذاب الاستئصالِ؛ لم يُبْقِ من المجرمينَ باقيَةً

ضمير المفعول في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يرجِع إلى قوم ثمود وعُتاتِهم المذكورِ ضميرُهم قريبًا في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾، وذلك يشمَلُ آحادَهم وجماعتَهم، فكلُّهم قد أخذتهُ الصّاعقة، وأبادتهُ، ولم تبقِ لهم باقيةً.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

بـيـانُ شِـدَّة الـصّـاعـقـة وعَظَمَتِها

(أل) في ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ؛ إذِ المَقْصودُ تلك الصّاعقة المُبيرَةُ، فهي "الصَّيحة العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشَّديدة من الرَّعد: صاعقة، وهي الَّتي تكون معها النّار الَّتي يُروى في الحديث أنَّها من المخراق الَّذي بيد مَلَكٍ يسوقُ السَّحاب"[4]، فهي "الموت أو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 180.

العذاب، أو: كلُّ عذاب مهلِك، والصَّعْقَةُ: هي الصَّوت الَّذي يكون عن الصّاعقة"[1]، وتعريفها بـ (أل) يوحي بأنَّها الصّاعقة الكاملةُ الصَّعْقِ، القاتلة للجميع، فلم تبقِ منهم أحدًا.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

أيسرُ أسباب اللـه تعالى تُهلك، فتُبير، فكيف بكمالِ قُدْرَته ﷻ

الأخذ في الحقيقةِ هو "التَّناوُلُ لِما لَم يكن في اليد"[2]، ففي التَّعبير بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ استعارة مكنيَّةٌ؛ إذ صوِّرت الصّاعقة بشخص يأخذ شيئًا، ويتناوله، والصّاعقة إنَّما صعقتهم، فأهلكَتهُم هُم في أماكِنِهم، ولم تَأْخُذْهُم، ففي تصوير فِعلها بهم بالأخذِ مبالغةٌ في بيان ضآلتهم وضَعْفِهم، وهوانهم على اللّه تعالى.

فهذا تصويرٌ مجمَل لإهلاكهم باستهانة، وأنَّهم شيء ضعيفٌ صغير حقير، وفيه كناية عن هَوانِهم وصَغارهم تحت قُدْرَةِ جُندٍ من جنود اللّه تعالى، وهو الصّاعقة المُهْلِكَة، فكيف بقُدْرَتِه هو ﷻ؛ إذا تولَّى هو ﷻ إهلاكَ قومٍ!

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾:

مِن أشقِّ العذاب ما يُعانيهِ المعذَّب ناظرًا يَقِظًا

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ حاليَّة، فيها دلالةٌ على مُعاينتهم لَحْظة الصَّعْق، ومُعاناتهم رؤيتَها، وأنَّ الصّاعقة لم تَضرِبهم، وهُم نيامٌ أو سُكارى مثلًا، وإنَّما عالجوها، وعانَوْها يَقِظين، ينظُرون، يتملَّكُهم الرُّعب ويُحيط بهم الفزَعُ من كلِّ جانب، وذلك من أشقِّ العذاب، فـ "الجملة في محلِّ نصبٍ على الحالِ"[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل النَّظر مضارعًا:

التَّعبير بالنَّظر في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ النَّظَرَ بالأعين، أي: "حالَ نظرِهم إلى

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 179.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 283.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.

نزولها؛ لأنَّهم لمّا رأوا بوارِقَها الشَّديدة؛ عَلِموا أنَّها غير معتادةٍ، فاستَشرَفوا يَنظُرون إلى السَّحاب، فنزلت عليهم الصّاعقة، وهم ينظرون، وذلك هولٌ عظيم؛ زيادةً في العذاب، فإنَّ النَّظَر إلى النِّقْمة يَزيد صاحبَها ألمًا، كما أنَّ النَّظر إلى النِّعمة يَزيد المنعَّم مسرَّة، قال تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50]"[1].

النَّظر إلى النِّقمة تـزيـدُ الألـم، وانتظارُ العذابِ أشدُّ من العذاب

ويحتمل الانتظارَ، أي: وهم "ينتظرون ما وُعِدوه مِنَ العذاب"[2]، "وانتظارُ العذاب أشدُّ من العذاب"[3]، و"ذلك أنَّ ثمودَ وُعِدَت العذابَ قبل نُزوله بهم بثلاثة أيّام، وجُعِل لنزوله عليهم علاماتٌ في تلك الثَّلاثة، فظهرت تلكَ العلاماتُ، فأصبحوا في اليوم الرّابع موقِنين بأنَّ العذاب بهم نازِلٌ، ينتظرون حلولَه بهم"[4].

وفي صوغ الفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ مضارعًا تصوير مرعِبٌ لتَجدُّد نظَرِهم في تلك اللَّحظة، وكأنَّها طالت عليهم، وتجدَّدَ عليهم هولُها، كأنَّها استغرقَت وقتًا وسيعًا على الرُّغم مِن أنَّ الصَّعْقَ يكون خاطِفًا، لا يستغرق وقتًا طويلًا؛ ليَدَعَ المصعوقَ قتيلًا.

بلاغةُ الكنايةِ في فعل النَّظر:

لا يَقْدِرُ على دفعِ عذاب الله أحدٌ

في النَّصِّ على النَّظر في قول الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ كناية عن "تسليمِهم وعَدَم قُدْرَتهم على الدَّفع، كما يقول القائل للمضروب: يَضْرِبُك فلانٌ، وأنت تنظر؟ إشارةً إلى أنَّه لا يَدْفَع"[5]، وقد كانت في غمامٍ، وكان فيها نارٌ[6]، وفي التَّعبير بفعل النَّظرِ إيماءٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، بتصرف.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 185.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 472.

إلى أنَّها "كانت نهارًا يُعاينونَها، وروِيَ أنَّ العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظُرون إليهم، وما ضَرَّتهُم"[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾:

هـــولُ رؤيـــة العـذاب يَفْقِدُ الـرّائي الـقـدرةَ عـلى مُـحـاولـة دَفْعِه

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ تفريعيَّة، وفيها معنى السَّببيَّة؛ إذ تنصُّ على تَفَرُّع عدم استطاعتهم القيامَ على نَظَرِهم إلى الصّاعقة حين حلَّت بهم، وأنَّ رُؤْيَتَهُم أخْذَ الصّاعقة إيّاهم أسْفَرَت عن عَجْزهم واستِسْلامهم للهلاك، فهَولُ رُؤْيَةِ العذاب يُفْقد رائيهِ القدرةَ على محاولة دفعِه فضلًا عن إفقاده القدرة عن دَفْعه فِعلًا.

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ﴾:

النَّـفـي بـ(مـا) أنسَبُ لما طوى، وانْتَهى

(ما) في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ نافية، فهي تَنْفي قُدْرَتَهم على الاستطاعة على مجرَّد النُّهوض من أماكن سُقوطِهم، والقيام مِنها للفِرار والهُروب، وفي إيثار التَّعبير بـ (ما) على التَّعبير بـ (لم) تهيئةٌ للتَّعبيرِ بالماضي ﴿ٱسْتَطَٰعُواْ﴾، وفي ذلك إيحاءٌ بِطَيِّ استطاعتِهم في تلافيفِ الماضي البَعيد، وعدم بقاءِ شيء منها فيهم، بخلاف (لَم)؛ فإنَّها تَقْتَضي فعلًا مضارعًا يكونُ بعدَها، وعطاءُ المُضارعَة هنا لا يتناسَبُ مع السّياق والغرض؛ لِما في المضارعة مِن الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار.

دلالةُ التَّعبير بالاستطاعة، ولطيفةُ صوغها فعلًا ماضيًا:

نفيُ الاستطاعة أدلُّ على العَجْزِ المطلَقِ

في التَّعبير بالاستطاعة بيانٌ لِعجزهم عن الهَرَبِ والفرار على سبيل المُبالغة، فإنَّ مَن لا يَقدر على قيام؛ كيف يَمشي، فضلًا عن أن يهرب؟ فإنَّ الاستطاعة دونَ القدرة؛ لأنَّ في الاستطاعة دلالةَ الطَّلَب، ونفيُها يُنْبِئُ عن عدَمِ القدرة والاستقلال، فمَن استطاع

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 404.

شيئًا؛ كان دونَ مَن يَقْدِرُ عليه، فقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ أبلغُ مِن قول القائل: ما قدروا على قيام[1]، ونفي الاستطاعة أبلغ من نَفْيِ القيام؛ لِما يُشْعِرُ به مِنَ العجز المطلق[2].

دلالةُ السّين والتّاء في الفعلِ ﴿ٱسْتَطَٰعُواْ﴾:

بيانُ عَجْزهم التّامّ بعدَ حُلول العذابِ بهم

السّين والتّاءُ في فعل الاستطاعة تدلُّ على العجز مع المحاولات المبذولة، وأنَّهم كأنَّهم كابَدوا المحاولات، فباءت بالعجْزِ التّامِّ، على الرُّغم مِن أنَّهم لا يُمكِنُهم المحاولة إلّا مع الصّاعقة الَّتي إذا ضربت؛ أحرقت، بل فحَّمت المضروب وأفنَته.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قِيَامٍ﴾:

العجز التّامُّ حليفُ من أحلَّ الله تعالى عليه الهلاكَ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قِيَامٍ﴾ صلةٌ لتأكيد النَّفي[3]، وهي تدلُّ على القَطْع بنَفْي استطاعتهم عن كلِّ قيامٍ.

دلالةُ التَّعبير بالقيام، ونكتةُ تنكيرِه:

اجتماعُ الخِزْيِ والصَّغار مع العذابِ الحسّيِّ عليهم

في التَّعبير بلفظ القيام في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ دلالةٌ على انطِراحهم أرضًا مَهْزومينَ يَتَمَلَّكُهُم العَجْزُ، ويَعْلوهُم الخِزْيُ والصَّغار، "فما استطاعوا أن يَهْرَبوا منه، وما قدروا على القيام بعدَ أن كانوا قاعِدين"[4]، وذلك نتيجة للعُتوِّ والتَّمادي فيه، وإذا عجَزوا عن القيام؛ كانوا عن فِعْلِ ما فوقَهُ أعجَزَ، وتنكيرهُ دليلُ انتفاءِ القدرة الكلّيَّة عَنْهُم، والعجز عن المحاولة بَلْهَ الفعلَ.

توجيهُ لفظ (القيام) بين الكنايةِ والمجاز:

أمرُ الله لا يُدفع، وقضاؤُهُ لا يُمنع

يجوز أن يكون لفظُ القيام في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ "من قولهم: ما يقومُ فلانٌ بِكَذا؛ إذا عجز عن دَفْعِه، فهو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 185.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 1848.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 472.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 26.

معنًى مجازيٌّ، أو كناية شاعت حتّى التَحَقَت بالحقيقةِ"[1]، فالقيامُ هُنا مجازٌ عنِ الدِّفاعِ، كما يقال: هذا أمرٌ لا يقوم له أحد، أي: لا يدفعه أحد، وفي الحديث: «غَضِبَ غضبًا لا يقوم له أحدٌ»"[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾:

إذا حلَّ الهلاكُ بقوم؛ أطبَقَ عليهم العجزُ واليأس من كلِّ جانبٍ

(الواو) في جملة: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ عاطفةٌ جملةَ النَّفي: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ على الجملة المنفيَّة قبلها: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾؛ وبذلك اجتمَع عليهم نفيُ القدرة على الدَّفع بأنفسهم، مع نفي القدرة على الانتصار بمعونةٍ مِن خارجهم، وأطبَقَ عليهم العجْزُ واليأسُ مِن كلِّ جانب.

لطيفةُ تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾:

تأكيدُ عجْزِهم عن دَفْعِ العذابِ بأنفُسِهم أو بِغَيْرِهم

في تكرار (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ بعد تقدُّم ذكرها في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ تأكيد على تمايُز العَجزَيْن: العجزِ عن مجرَّد القيام والانتصار بالنَّفس، والعجز عن الانتصارِ بغيرهِم.

دلالةُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

القَطعِ بِفَناء قومِ ثمودَ مناسِبٌ شِدَّةَ إعراضِهم

قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ يدلُّ على قوَّة انتفاء فعل الانتصار، والتَّعبيرُ بفعل الكون ماضيًا منفيًّا يتَّسق مع دلالاتِ التَّركيب كلِّه، مِن استعمال (ما) وتكرارها، وفعل الاستطاعة الماضي المنفيِّ، فكلُّها تتَلاقى، وتتآزر على طَيِّ تلك الأحداث، والقطع بِفَناء تلك القبيلةِ العاتية، وفي إسناد فعلِ الكون الماضي في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ إلى ضمير الجماعة دلالةٌ على إطباق العجز التّامِّ عليهم جميعًا، وأنَّه لم يُفْلِت منه أحدٌ، وذلك يُلائم عتوَّهم جميعًا، وعدم قبول أحدٍ منهم الإيمانَ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.

دلالةُ التَّعبيرِ بالانتصار اسمَ فاعلٍ:

بـيـانُ عَـجْـزهـم عن دفْعِ العذابِ بـأنـفُـسـهـم أو بِغَيْرِهم

التَّعبيرُ بمفردة الانتصار في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ يَنْصَرِفُ إلى نفي نُصرة غير ثمودَ إيّاهم، ويقطع بأنَّهم ما كانوا مُنْتَصِرين "بغَيْرِهم، كما لم يَمتَنِعوا بأنفُسِهم"[1]، وأنَّه "لم يَنْصُرْهم ناصرٌ حتّى يكونوا مُنْتَصِرين؛ لأنَّ (انتصر) مطاوعُ (نصر)، أي: ما نَصَرَهُم أحدٌ، فانتصَروا"[2].

ولا يُحْمَلُ النَّصرُ المنفيُّ هنا على نَفْيِ انتِصارهم هم بأنفسهم؛ لأنَّه مفهومٌ بطريق اللُّزوم الكِنائيِّ مِن النَّفْيِ الأوَّل في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾، فكيف يَنفي النَّظمُ الكريم قدرتَهم على الانتصار بأنفسهم بعدَ نفي قُدْرَتِهم على مجرَّد النُّهوض للهرَب؟.

إنَّ طبيعةَ المعاني تقتضي التَّرقّي والتَّصعُّدَ في سُلَّم العجز، فيكون النَّفيُ الثّاني أدخلَ في العجز مِن النَّفي الأوَّل؛ فثبتَ أنَّ النَّفي الثّاني مُتَمَحِّضٌ لِنصر غيرهم إيّاهم، فينتج عنه أنَّهم ما استطاعوا مِن دَفْعِ العذاب عن أنفُسِهم لا بأنفُسِهم، ولا بغيرهم من الأنصارِ والأعوان[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العتوّ والطُّغيان والبغي:

الـبـغـيُ الاستـطـالـة، والـطُّـغـيـانُ مـجـاوزة الـحـدِّ مـع الـقـهـر، والعتوُّ المبالغة في المكروهِ

الطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُقال: طغى الماء؛ إذا جاوز الحدَّ في الارتفاع. والعتوُّ: المبالغة في المكروه، فهو دون الطُّغيان، ومنه قوله تعالى حكايةً عن زكريّا عليه السلام: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، قالوا: كلُّ مبالغ في كِبْر أو كُفْر أو فسادٍ؛ فقد عتا فيه، ومنه قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 142.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 390.

تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة: 6]، أي: مبالغة في الشِّدَّة[1]، والبَغْيُ: التَّعدّي، وبَغى الرَّجل على الرَّجل: استطال، وبَغَت السَّماءُ: اشتدَّ مطرها، وبغى الجُرح: ورِم، وتَرامى إلى فسادٍ، وبَغى الوالي: ظَلَم، وكلُّ مجاوَزة في الحدِّ وإفراط على المقدار الَّذي هو حدُّ الشَّيء، فهو بغيٌ[2].

وأمّا الجامع الدَّلاليُّ بينها؛ فهو مجاوزة الحَدِّ المشروع، لكنَّها تختلف في نوع المجاوزة وجِهَتِها والدّافع، وكلُّها تدخل تحتَ ضربٍ من ضروبِ الفسادِ، لكنَّها تتنوَّع بحسب السّياق.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337.
(2) الجوهري، الصحاح: (بغي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"